

نحو بناء استراتيجية للتعامل مع الملف الإيراني في المنطقة

"الحوثيون في اليمن أنموذجاً"

ما هي الاستراتيجية؟

يرجع أصل كلمة "استراتيجية" إلى اليونانية، وتعني "فن إدارة وقيادة الحروب"، لأن أصلها يعود إلى الجانب العسكري. ثم انتقلت لتصبح تشمل جميع جوانب الحياة ولتعني الخطة الشاملة في ميدان ما. ثم أصبحت علمًا وفنًا للتخطيط والتكتيك والعمليات. فالاستراتيجية هي تخطيط عال المستوى، وفق رؤية محددة مسبقاً، يضمن للإنسان تحقيق هدف معين على المدى البعيد في ضوء الإمكانيات المتاحة أو التي يمكن الحصول عليها.

ويمكن لي أن أعرفها - بكل بساطة - هنا: أنها تخطيط للمستقبل ينطلق من الدراسة الواعية للماضي ومُعطيات الحاضر مستندة إلى رؤية واضحة. ودراسة الماضي والحاضر فيما يخص قضيتنا هنا - الملف الحوثي - تقوم أولاً على الدراسات والأبحاث العلمية المتوفرة مسبقاً، ثم يتبعها دراسة ميدانية خاصة تستوعب العلاقات المتشابكة لهذا الملف دون إهمال أي جانب مهم يتعلق بها أو حيوي يؤثر فيه سلباً أو إيجاباً. فالملف الحوثي يجب أن يُستوعب بالدراسة العلمية-الميدانية ليكون التخطيط التفصيلي مبنياً على تصورٍ دقيق، كما يُقال فالحكم على الشيء فرع عن تصوره. والملف الحوثي ملف مركب من جوانب عديدة: فكري عقائدي، وسياسي ثوري، وعسكري واقتصادي، وطبيعة الزمان والمكان، وكل جانب من هذه الجوانب متشابك بشكل معقد مع الآخر، والأهم هنا هو فهم المفتاح الأساس الذي يؤثر في بقية الجوانب.

على ماذا تُبنى الاستراتيجية؟

من المهم جدًا أن يُفهم أننا لا نتعامل في الملف الحوثي مع مجموعة يمنية مسلحةٍ أو نائرةٍ لأجل مطالبٍ محدودةٍ يُمكن معالجتها بما يتناسب مع هذا الفهم. بل في الحقيقة إننا أمام مظهرٍ يمنيٍ مسلحٍ وقويٍ يبطن تخطيطاً استراتيجياً إيرانياً في المنطقة، وللتعامل معه بشكلٍ ناجحٍ يجب أن يُتعامل مع الملف على أساس هذه الحقيقة.

المعركة هنا هي بالدرجة الأولى معركة فكرٍ أنتج حركةً مسلحةً مؤدلجةً، والفكر يُواجه بالدرجة الأولى بالفكر، ومن الطبيعي أن تكون معركة الفكر تخطيطاً نابغاً من رؤية واضحة ومحددة وعلى المدى البعيد، وليست علاجات مسكنة مؤقتة أو ردود فعل سريعة ومجتزأة.

هل الفكر هو حجر الزاوية في الملف الحوثي؟

كما نوهتُ سابقاً فإنَّ المعركة هنا هي بالدرجة الأولى معركة فكرٍ ثم يلحق به بقية الجوانب، فالفكر هو المفتاح الأساس في قضيتنا هذه. إن أخطر ما يمكن أن يحدث في أي نظامٍ أو منطقةٍ، هو نطاقه وأمنه الفكري الذي يمثل حجر الزاوية وعنصر التماسك والترابط في منظومته القيمة، لأنه حينئذٍ يفقد قوته الناعمة التي تغذي كيانه.

وقد وضع وزير الدفاع الأمريكي "رامسفيلد" قواعدَ مهمةً في السياسة والقوة، ومن أهم تلك القواعد قوله: "إن الضعف يحرض عليك الآخرين". وأخطر أنواع الضعف هو الضعف العقدي والفكري، والذي سوف يُحرض جميع أشكال وأنواع الأفكار الأخرى المعادية لاختراق نطاقك الفكري ومنظومتك الأمنية، لتفقد المنظومة تماسكها وجوهريتها، وجاذبيتها وقوتها.

وذكر "جوزيف ناي" -مدير مجلس المخابرات الوطني الأمريكي، ومؤلف كتاب "القوة الناعمة" - أن جدار برلين كان قد تم اختراقه بالتلفاز والأفلام السينمائية، قبل زمن طويل من سقوطه في عام ١٩٨٩م؛ لأن مطارق الثقافة اخترقته قبل أن يسقط! ويؤكد أيضًا "أن قوتنا الناعمة تُفضّل لها أن تساعد على تحويل الكتلة السوفيتية من الداخل". يقول: "برغم أن الاتحاد السوفيتي قد فرض قيودًا ورقابة على الأفلام الغربية، فإن الأفلام التي نفذت عبر مصفاة القيود والرقابة، كانت مع ذلك قادرة على أن تُحدث آثارًا سياسية مدمرة، وكانت بعض الآثار السياسية مباشرة أحيانًا، ولو غير مقصودة".

ويؤيده السناتور الأمريكي السابق ووزير الدفاع الحالي "تشاك هاغل" بقوله: "تعتمد القيادة الأمريكية على قدرتنا على الإقناع والاجتذاب، إن قوة أمريكا الناعمة؛ أي قوة ثقافتنا وقيمنا وجاذبيتنا، يجب أن تنعكس بوضوح في سياستنا الخارجية ودبلوماسيتنا.. لا يمكن تبديد القوة الناعمة، وإلا فقد نفقدُ الجيل القادم".

لقد أدركت القوى الكبرى قبلنا خطورة وتأثير الأفكار، فسلطأها غير محدود بمكان أو زمان أو أشخاص، ولذلك قال المفكر الألماني "هاينه" محذرًا من مغبة الاستخفاف بسيادة الأفكار وتأثيرها: "إن الأفكار الفلسفية التي يطرحها أستاذ من مكتبه الهادئ قادرة على إبادة حضارة بكاملها!"

وكتب "روبرت رايلي" - مدير إذاعة صوت أمريكا، والذي ظهر لأول مرة في صحيفة "واشنطن تايمز" بتاريخ ١/٢٨ / ٢٠٠٢م - مقالاً بعنوان: "كسب حرب الأفكار" ومما جاء في ذلك المقال، قوله: "الطبيعة الحقيقية للصراع، صراع المشروعات الفكرية في قلوب وعقول الناس، وليس القوة العسكرية. إن الحروب تخاض ويتم فيها تحقيق النصر أو الهزيمة في عقول الناس، قبل وقت طويل من بلوغها نهايتها في ميدان قتال بعيد".

ويقول الباحث الغربي "إيزايا برلين" -مفكر بريطاني، وأستاذ النظرية الاجتماعية والسياسية في جامعة أكسفورد- محذرًا من ترك الأفكار المخالفة دون تصدّ لها: "إن إهمال الأفكار من قبل الذين ينبغي أن يعتنوا بها - أي من قبل من تدربوا على تبني نظرة ناقدة للأفكار عمومًا - قد

يؤدي أحياناً إلى اكتسابها قوة كاسحة، لا يمكن مقاومتها أو كبحها، تفرض على أعداد هائلة من البشر".

هذه الحقيقة - في منطقتنا - لم تعد بحاجة لمثل هذه المقولات الآتية من هؤلاء الخبراء الكبار، حيث يشهد الواقع كيف تمددت إيران - مثلاً - من خلال تسلل قوتها الناعمة مع مرور الوقت وتراكم التواصل الفكري في مناطق لم يكن لها وللتشيع أي وجود إطلاقاً كما هو حال إفريقيا وشرق آسيا، وكيف حولت إيران بعض البؤر الشيعية الصغيرة المنعزلة أو ذات الميول الشيعية إلى قوة إقليمية تصل لمستوى قريب من الدولة كما هو الحال في جنوب لبنان وشمال اليمن.

الحوثيون - ومن المهم فهم ذلك - جزء لا يتجزأ من المشروع الإيراني، ولا يُمكن حل هذا الملف إذا عزل عن سياقه، والوسيلة الأهم التي استخدمتها إيران وتستخدمها في مشروعها التوسعي هي الفكرة.

من المهم جداً بل هو قطب الرحى وحجر الزاوية للتصدي للمشروع الإيراني أن نبنى استراتيجيتنا على أساس الفكر بالدرجة الأولى، وما بعد ذلك فإنه يأتي تالياً في الأهمية ويندرج أكثره في الوسائل وآليات التنفيذ.

قال "فرانك أنلو" في كتابه (القيادة والتغيير): "راقب أفكارك جيداً، فإنها تصبح كلمات، راقب كلماتك فإنها تصبح أفعالاً، راقب أفعالك لأنها تصبح عادات، وراقب عاداتك لأنها تصبح شخصيتك، وراقب شخصيتك لأنها تصبح مصيرك".

اليمن قبل الثورة وبعدها!

مع أنّ القضية الحوثية بدأت قبل الثورة اليمنية فيما يُسمى بالربيع العربي، فإن من المهم إدراك أنّ القضية أخذت بُعداً متسارعاً بعد الثورة يحسن الانتباه له ومراعاته، وكيف أن إيران أصبحت ترى في اليمن البديل الأمثل عن سوريا. فاليمن يمر حالياً بمرحلة معقدة جداً - فكرياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً وأمنياً - حيث أفرزت ثورة فبراير ٢٠١١ م تحولات جذرية في المشهد اليمني

من خلال سقوط الرئيس السابق وتغير التحالفات السياسية بين أعداء وأصدقاء الأُمس، ثم أخيراً وهو الأهم انفتاح الأبواب على مصراعيتها، بل انخلاعها، أمام التدخلات الأجنبية؛ الإقليمية والعالمية.

فالحوثيون انضموا إلى الثورة الشعبية وكانت أول مظاهرة لهم في محافظة صعدة يوم ٢١/٢/٢٠١١م، ودفعوا بأنصارهم لإسقاط النظام (الموقع اليمني: الصحوة نت ٢١/٢/٢٠١١م). ومع قيام الثورة في اليمن لم تعد خطورة القضية الحوثية مقصورة على معاقبتها الرئيسة - بصعدة - بل أصبحت تمتد إلى كافة أنحاء اليمن بل قد تتجاوز ذلك. ويؤكد "شائف العميسي" - قائد ومنظر سابق للحوثيين في محافظات صنعاء وذمار، ثم انشق عنهم - (أخبار اليوم ١١/٣/٢٠١٢م) أنه حصل تغير نوعي للحركة الحوثية بعد الثورة الشعبية، حيث دفعت بكوادرها في صنعاء للظهور في العلن - وهذا ما لم يكن يحدث سابقاً خوفاً من النظام - وإنشاء جماعة "الصمود" بدعم إيراني وتغطية إعلامية من خلال قنوات تابعة لإيران كقناة المنار والعالم والاتجاه وبرس تي في وغيرها، والانخراط في ساحة التغيير.

ويؤكد الدكتور "عبدالله الفقيه" - أستاذ العلوم السياسية بجامعة صنعاء - (صحيفة الشرق الأوسط ١٢/١٠/٢٠١٢م) أنه بعد الثورة اليمنية لم تعد مساعي التغلغل الإيراني السياسي والأمني خفية، بل واضحة وأصبحت إيران تستغل الاختلال الكبير في النظام خلال هذه المرحلة خاصة حالة انقسام القوات المسلحة والأمن، وتردي الأوضاع الاقتصادية بشكل رهيب، وزيادة حدة الصراعات والخلافات السياسية بين اليمنيين. يقول ما نصه: "إيران تسعى لخلق منطقة نفوذ في هذا الجزء المهم من العالم بأي ثمن".

وكذلك كشف مصدر حكومي لصحيفة السياسة الكويتية بتاريخ ٢/١٢/٢٠١٢م أن إيران تستغل الأزمة والأوضاع المتردية التي تمر بها اليمن لضخ مبالغ ضخمة لتشجيع الحراك الجنوبي للانفصال، وفي الوقت نفسه استهداف الشباب فكرياً في صعدة وصنعاء وعدن وتعز، حيث نجحت في استقطاب ١٢٠٠ شاب من تلك المناطق، لينتقل بعضهم للدراسة في مدينة قم الإيرانية والبعض الآخر للتدريب في معسكرات حزب الله بلبنان. وبحسب (صحيفة الشرق

الأوسط ١٠/١٠/٢٠١٢م) فإن ابتعاث اليمينيين سنة وزيدية على أشده حاليًا، حيث يتم إرسالهم للدراسة الدينية وغيرها في إيران.

وتحدثت تقارير أميركية (الجزيرة نت ١٣/١/٢٠١٣م) نقلًا عن مسؤولين في وزارة الدفاع (البنتاغون) ووكالة الاستخبارات المركزية (سي آي أي)، عن قيام طهران بنقل ثقلها من سوريا إلى اليمن، وسعيها إلى السيطرة على مضيق باب المندب في البحر الأحمر، وهو ما يشكل تهديدًا للأمن بالمنطقة وخطوط الملاحة النفطية العالمية. ورأى محللون أن التوتر المتصاعد بين طهران وصنعاء ذلك الوقت يرتبط بتطورات المشهد الثوري في سوريا، وبدء انهيار نظام بشار الأسد، الحليف الإستراتيجي لإيران، في وقت تسعى فيه طهران -عبر جماعات مسلحة تدعمها مثل الحوثيين والانفصاليين- إلى إيجاد موطئ قدم لها باليمن.

وقال المحلل السياسي "محمد الغابري" إن "التدخل الإيراني في اليمن له أبعاد سبقت الثورات العربية غير أن الثورة السورية أضافت بعدا جديدا". وأضاف أن الإستراتيجية الإيرانية قائمة على السيطرة على الممرات المائية بالمنطقة وبينها اليمن، مشيرا إلى أن ملامح ما سماه ب(المخطط الإيراني) على مستوى الجغرافيا اليمنية اتضحت بتقسيم البلاد إلى أربع مناطق الأولى، تبدأ بمحافظة صعدة وتتجه إلى ميناء ميدي على البحر الأحمر. والمنطقة الثانية التي تتغلغل فيها إيران -بحسب الغابري- هي محافظة تعز، مرورًا بجزيرة ميون ومضيق باب المندب، والمنطقة الثالثة هي مدينة عدن والبحر العربي وخليج عدن، فيما الرابعة هي محافظتا حضرموت والمهرة وتتجه لجزيرة سقطرى بالمحيط الهندي. واعتبر الغابري أن ما سماه المخطط الجغرافي للتحرك الإيراني يفسر استقطاب الحوثيين وشخصيات يسارية في تعز، وقوى بالحراك الجنوبي الانفصالي، و"علي سالم البيض" نائب الرئيس اليمني الأسبق الذي اتجه لطهران للحصول على الدعم المالي، ويتخذ من بيروت مقرًا لإقامته ومنطلقًا لفضائيته الانفصالية. يقول الغابري "الهدف هو القرب من الممرات المائية في البحر الأحمر، إضافة إلى أن اليمن تعد الحديقة الخلفية للسعودية". (الجزيرة نت ١٣/١/٢٠١٣م).

وإذا تذكرنا أن إيران تمتلك وجوداً فعلياً على الجانب الغربي من البحر الأحمر، في جزر تابعة لإريتريا، فسوف ندرك طبيعة الإشكال الضخم، حين تنجح في تأسيس قوة موالية لها -أيضاً-

على الجانب الشرقي من مضيق باب المندب في البحر الأحمر، في الوقت الذي لم تزل تستعرض قدراتها على تهديد -أو على الأقل إرباك- حركة الملاحة في مضيق هرمز في الخليج العربي.

خصوصية اليمن!

لليمن خصوصية تؤهله بشكل أكبر ليكون الهدف الأهم للمشروع الإيراني. لعل أهم ملامح هذه الخصوصية ما يلي: أولاً: موقعه الاستراتيجي الحيوي والهام. ثانياً: ضعف نظام الدولة فيه منذ عقود ثم ازداد هذا الضعف بشدة بعد الثورة. ثالثاً: حالة الفقر المزمنة وتبعاتها الخطيرة على الحالة الفكرية والسياسية والأمنية. رابعاً: خصوبة أرض اليمن وقابليتها لقيام دولة ذات صبغة طائفية شيعية، فباستقراء التاريخ نجد أنه بواسطة تسرب مجموعات قليلة جداً من الأفراد من العراق وغيره تم بثُّ أفكار شيعية في الأوساط السنية والزيدية، لينشأ بعد سنواتٍ قليلةٍ جداً إثر تلك الدعوات دول شيعية دخلت في حروب طاحنة ضد السنة والزيدية، داخل اليمن وخارجه. خامساً: خصوبة الأرض اليمنية للبذور الفكرية والسياسية باختلافها وتناقضاتها، فاليمن يكاد يكون صدى للأفكار التي تظهر في الأقطار العربية أو الإسلامية المؤثرة. سادساً: حالة الانقسام السياسي والفكري والقبلي الحاد: الحراك الجنوبي، تنظيم الإخوان المسلمين، جماعة القاعدة، الحركة الحوثية، صراعات القبائل على النفوذ. سابعاً: الإهمال الفكري لليمن من قِبَل أصدقاء اليمن وجيرانه لمواجهة المشروع الفكري الإيراني. حيث عادةً ما يصبُّ الدعم المالي والسياسي لأصدقاء اليمن وجيرانه في صالح قوى سياسيةٍ أو زعاماتٍ قبليةٍ معينة، دون عنايةٍ بمراقبة أداء تلك القوى وتقييم قدرتها أو حتى رغبتها فيما يتعلق بالمواجهة الفكرية للتمدد الإيراني في الداخل اليمني.

هذا الوضع أنتج معركةً خاسرةً، حيث سقطت اليمن في يد الحوثيين، بعد أن زرعت إيران أفكاراً تنمو وتتوسع في الداخل اليمني، مستفيدةً من كل اختلالٍ يقع هناك. بل إن جزءاً واسعاً من القوى القبلية التي كانت تستفيد من المال الخليجي، انقلبت وتحالفت مع المشروع الإيراني، حين رآته أكثر نفعاً لها. وتلك طبيعة الأطراف الوصلية التي لا تمتلك فكراً ولا رؤيةً.

الفكر الحوثي، هل تحول الحوثيون عن الزيدية!

إذا أردنا تشخيص الحالة الفكرية للجماعة الحوثية، فسوف يثور تساؤلٌ أساسٌ ههنا: فهل الحوثيون من الناحية الفكرية تابعون للخَطِّ الإيراني، أو هم امتدادٌ للمذهب الزيديّ ذي الجذور التاريخية في أرض اليمن؟!

الحوثيون -مع وجود تصريحات علنيّة وأدلة ميدانية تُدينهم- فإنهم يُنكرون أي تحولٍ في معتقدتهم تجاه المعتقد الجعفري أو وجود علاقة عقائدية مع إيران. فالأب بدر الدين الحوثي (صحيفة الوسط الأسبوعية ١٩/٣/٢٠٠٥م) يؤكد أن ابنه حسين لم يتجاوز معتقد المذهب الزيدي، وأنَّ موقف علماء الزيدية من ابنه موقف نابع من الضلالة واتباع ومجاملة الدولة. وكذلك أكد يحيى الحوثي شقيق حسين، ممثل الحركة في الخارج، بأن أفكارهم لم تتجاوز المذهب الزيدي.

ومع ذلك، فإنَّ المتابع لما كان يصدره المقتول حسين الحوثي من مَلازم تمثل فكره يجد فيها خروجًا عن المذهب الزيدي بل اتهام المصادر والكتب والمراجع الزيدية بأنها ضلال كلها وأنها سبب الذلة والقعود التي ضُرِبَتْ على الزيدية. هذا الموقف من المذهب الزيدي التقليدي دفع علماء المذهب من أمثال: حمود بن عباس المؤيد وأحمد بن محمد الشامي -الأمين السابق لحزب الحق- ومحمد بن محمد المنصور وصلاح بن أحمد فليّنة وحسن محمد زيد الأمين العام لحزب الحق، إلى إصدار بيان منشور جاء فيه التحذير من حسين الحوثي واصفين آراءه بالضلالات والبدع، مؤكدين أن "أقواله وأفعاله لا تمت إلى أهل البيت وإلى المذهب الزيدي بصلة".

الحوثيون وإيران والتعاطف المتبادل: جديد أم قديم؟

لستُ بصدد سرد تاريخي موثق بالتفاصيل لرصد وتوثيق العلاقة الحوثية-الإيرانية وتطورها خلال العقود الأربعة الماضية. ولكنني بصدد إعطاء إضاءات وإلماحات ضرورية لتسليط الضوء على العلاقة غير الجديدة والتعاطف القديم الذي يربط بين الاثنين منذ البداية، والذي أخذ منحى التعاطف الثوري والديني معًا.

فبعد إعلان نجاح الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م كانت هناك مظاهرات مؤيدة للخميني تجوب شوارع صعدة إلى درجة استفزت الحكومة فقامت بحملة اعتقالات لإخمادها (صحيفة الجمهورية الرسمية ٢٠٠٧/٦/٣٠م).

وحينما أنشأ العالم الزيدي "أحمد فليته" اتحاد الشباب عام ١٩٨٦م كان من ضمن ما يدرسه مادة عن الثورة الإيرانية تولى تدريسها محمد بن بدر الدين الحوثي شقيق حسين الأكبر.

ومنذ أن تولى "حسين الحوثي" زعامة تنظيم "الشباب المؤمن" أخذ التغلغل الإيراني العقائدي منحًا أكثر نشاطًا، فظهر مع الفعاليات والأنشطة العلمية والثقافية التي يقيمها التنظيم في الأوساط الزيدية شخصيات اثنا عشرية من إيران والعراق للمساهمة في التعليم رافقها انتشار الكتب والمنشورات الشيعية والتي أصبحت بعض المكتبات الزيدية تقدمها للبيع، ثم رافق ذلك إحياء احتفالات ومناسبات لم تكن موجودة بشكلها الجديد من قبل في أوساط الزيدية!

وقد اتهم العلامة والمرجع الزيدي "محمد عبدالعظيم الحوثي" (مقابلة مع صحيفة الأهالي ٢٠١٠/١٢/٧م) حسين الحوثي وأتباعه بالخروج على الزيدية، واتهمهم باستغلال المذهب الزيدي لأجل أطماعهم.

وبحسب "يحيى النجار" -وكيل وزارة الأوقاف والإرشاد اليمني- (صحيفة الشرق الأوسط ٢٠٠٧/٣/٢م) فإنه من خلال متابعته لهذه الحركة واستنادًا إلى أدبياتها وملازمها منذ عام ٢٠٠٤م وجد أن هناك اعتناقًا للأفكار الشيعة الجعفرية. ويؤكد "القاضي حمود الهتار" -وزير الأوقاف اليمني السابق- (صحيفة الوسط ٢٠٠٥/٥/٢٠م) أن بدرالدين الحوثي وولده حسين يسعيان لاستنساخ تجربة الخميني ونهجه، مؤكدًا أن أفكارهما الواردة في ملازمهم لا تمت بصلة إلى الزيدية.

ويؤكد المرجع الزيدي "مرتضى المخطوري" (صحيفة الوسط ٢٠٠٧/٢/١م)، المتعاطف مع الحركة الحوثية، أن بدرالدين الحوثي ذهب إلى إيران ومكث فيها، وأن القادة في إيران بذلوا جهودًا جبارة من أجل أن يجعفروه.

ويؤكد "علي العماد" (صحيفة الشرق الأوسط ٢٠١١/٨/٢٢م)، القيادي في حركة الحوثي، أن التوافق بين الحوثيين وإيران توافقت ثوري وفي الرؤية السياسية الفكرية للعمل الثوري. ومن جانبه يؤكد "حسن زيد"، أمين عام حزب الحق، (مجلة الكفاح العربي ٢٠٠٩/١٠/٣م) بأن جماعة الحوثيين منبهة بتجربة حزب الله والتجربة الإسلامية في إيران.

يقول "عبدالمملك الحوثي" (صحيفة الأخبار اللبنانية ٢٠٠٨/٧/٤م): "نحن ننظر إلى الأخوة المجاهدين في حزب الله بعين الإكبار والإجلال، ونحن لهم كل المودة والتقدير، ونعدهم شرفًا للأمة الإسلامية وسادةً للمجاهدين في العالم، ونأسف للموقف السلبي من بعض الأنظمة العربية تتجاههم".

ويقول آية الله "علي الكوراني" -ويُعتبر من الشخصيات الشيعة اللبنانية المقيمة في إيران والتي تلعب دورًا فكريًا في غاية الخطورة في اليمن، بتنبؤاته الغيبية الخرافية من خلال كتابه (عصر الظهور) يصنع الواقع الممهد لسيطرة إيران على المنطقة- (صحيفة الوسط ٢٠٠٧/٢/١م): "الحوثيون جزء من طرق تمددنا". لذلك تجد أن الحركة الحوثية ترفع الشعارات نفسها التي رفعتها وترفعها إيران من قبل، مثل: الموت لأمريكا ولإسرائيل. وقد أكد السفير الإيراني "محمود زاده" (صحيفة الهوية ٢٠١٢/٨/٢٩م) أنه شعار مشترك بين الإيرانيين والحوثيين.

وفي تدخل صريح وعلني أصدر آية الله منظري (صحيفة أخبار اليوم ٢٠/٥/٢٠٠٥م) بياناً ضد الحكومة اليمنية واصفاً إياها بأنها تقوم بجملات إبادة ضد الشيعة في اليمن، ومهدداً الرئيس اليمني بما حدث لنظام صدام حسين على يد القوات الأمريكية، مؤكداً أن الرئيس اليمني وغيره من الديكتاتوريين سيتم طردهم من السلطة عاجلاً أم آجلاً.

وتذكر معلومات محلية يمنية أن إيران سعت بشكل جاد وحثيث على نشر كتاب (عصر الظهور) في اليمن بين الزيدية والشيعة، والذي يتنبأ بقرب ظهور حسين اليماني الممهد لدولة المهدي المنتظر، وحاولت تحفيز رغبة الحوثيين لأن يكون هو الموصوف في روايات أهل البيت!

ويعترف "علي أحمد الأكوغ" (صحيفة الشرق الأوسط ١٩/٣/٢٠١٠م)، متشيع وأحد أبرز المؤسسين لرابطة الإثني عشرية في اليمن، بتقديم إيران الدعم لحركة الحوثيين إلى جانب إشراف حزب الله على التدريب العسكري لأفراد وعناصر الحركة. ويذكر "الأكوغ" أنه قابل في مدينة قم الإيرانية آية الله "علي الكوراني" الذي أكد له أن القيادة الإيرانية تدعم الحركة الحوثية في اليمن كما تدعم حزب الله في جنوب لبنان.

وأكد المسؤول اليمني ورئيس جهاز الأمن القومي اليمني الدكتور "علي حسن الأحمدي" (الجزيرة نت ١٣/١/٢٠١٣م) أن دعماً إيرانياً رسمياً وآخر من قبل الحوزات العلمية -مادياً ومعنوياً- قدم وما زال لجماعة الحوثيين في صنعاء، وأضاف أن إيران تدخلت في صنعاء من الناحية المذهبية، رغم أن الصراع ليس مذهبياً بل سياسياً.

ما هي الاستراتيجية الإيرانية وطبيعتها في المنطقة؟

تقوم استراتيجية إيران في المنطقة على نقطة جوهرية ثابتة وهي تصدير الثورة والاستحواذ على المواقع الحساسة والإستراتيجية عبر الاستحواذ على الأقليات الشيعية وتنميتها وتشجيع محيطها، وتختلف وسائل وآليات تنفيذها من مرحلة إلى أخرى ومن ظروف إلى ظروف، فلكل زمن آلياته المناسبة لتصدير الثورة.

فإيران "الخميني" كانت تنتهج التصدير العنيف للثورة لترسيخ القوة الناعمة للجمهورية. وإيران "رفسنجاني" كانت تنتهج التصدير الناعم للثورة لترسيخ القوة العنيفة الكامنة وقت الحاجة للجمهورية، والخميني ورفسنجاني يسعيان لتحقيق الهدف نفسه بوسائل مختلفة وأحياناً تظهر لبعض المتابعين أنها متناقضة. وهكذا هو الحال في إيران "خاتمي" وإيران "أحمدي نجاد" وإيران "روحاني".

ومن يتابع المشروع الإيراني طوال العقود الأربعة في العالم الإسلامي؛ يجد أن المشروع يسير نحو تحقيق أهدافه وأنه لم يتوقف لحظة واحدة مع مرور واجهات مختلفة للجمهورية الإسلامية، بين من يُصنف بالمحافظين والإصلاحيين، مما يدل أن المشروع يسير بخطوات ثابتة بغض النظر عن من يقف في الواجهة، وأنَّ الفاعل الرئيس في إيران هو المرشد الأعلى للثورة الإيرانية.

المظلومية الحوثية على خطى المظلومية الإيرانية: الحشد والتمدد!

يسكن الوجدان الشيعي الجعفري بعمق الإحساس بالمظلومية، هذا الإحساس جعل بينه وبين الآخر سداً منيعاً وفي الوقت نفسه كان عامل جذب داخل الدائرة الشيعية تستقطب فيها النقاط المعتدلة نحو نقطة المركز والتي غالباً ما تكون تمثل التشدد. وبعد قيام الجمهورية الإسلامية بإيران أصبحت المظلومية بجانب بعدها العقدي تُمثل بُعداً سياسياً استثمرته طهران إلى أبعد حد، لجمع الشيعة حولها ضد خصوم إيران، مزاجية بين أعداء المذهب وأعداء الجمهورية، بين أعداء الإمام وأعداء المرشد.

ويبدو أن النهج نفسه - كما هي الشعارات - انتقلت إلى الحوثيين، حيث أطلقت الحركة الحوثية نداء المظلومية بين أبناء الزيدية الموافقين لها والمخالفين، لتصوير أن الهجمة التي يتعرض لها الحوثيون ليست إلا هجمة على مذهب آل البيت مذهب الزيدية. واستطاعت أن تكسب إلى صفها العديد من أبناء ومراجع الزيدية.

ويصور "محمد بدر الدين الحوثي" (موقع المنبر التابع لحركة الحوثيين ٣/٩/٢٠٠٧م)، عضو الهيئة الإدارية لمنتدى الشباب المؤمن، هذه المنهجية في إظهار المظلومية بوضوح، فيؤكد أنّ المذهب الزيدي وأتباعه تعرضوا للقمع الرهيب والمحاولة الجادة لطمس الهوية الزيدية من قبل السلطة، وأنّ قيام الحركة الحوثية ليست إلا لتدارك الفكر الزيدي وصيانتها من أطماع الطامعين، وأنه وقع عليهم الاضطهاد والحرمان والتمييز العنصري والطائفي منذ عام ١٩٦٣م.

ويُتابع "محمد الحوثي" حديثه -مجتزاً الخطاب الجعفري التعبوي نفسه- مُبيّناً أن قيامهم إنما كان بسبب العنصرية ضد الهاشميين والزيدية، وأن هذا النهج الموجه ضدهم "إنما هو استتجار لتاريخ قمعي وإرث لتركة غنية بالأحقاد والظلم والاضطهاد خلفها أئمة الجور من الأمويين والعباسيين الذين لطخوا صفحات التاريخ بجرائمهم ضد أهل البيت وشيعتهم عبر مئات السنين، وهذا ما نلمسه واقعاً معاشاً قولاً وعملاً".

وفي حوار مع "صالح هبرة" (صحيفة الشرق الأوسط ١٨/٦/٢٠٠٩م)، الناطق السابق باسم الحوثيين ورئيس المكتب السياسي للحركة، أكد أنهم في حربهم ضد الحكومة إنما يقومون بواجب الدفاع عن أنفسهم إزاء السلطة التي تحاول قتلهم والقضاء عليهم!

بل إن مراجع إيران دخلوا بأنفسهم في خط مظلومية الزيدية المزعومة في اليمن، حيث أصدر آية الله منتظري (صحيفة أخبار اليوم ٢٠/٥/٢٠٠٥م) بياناً ضد الحكومة اليمنية واصفاً إياها بأنها تقوم بحملات إبادة ضد الشيعة في اليمن، وموجهاً تهديده للرئيس اليمني وغيره من رؤساء المنطقة، مؤكداً أن جميع الديكتاتوريين سيتم طردهم من السلطة عاجلاً أم آجلاً.

هل الحل العسكري هو الحل الأنموذجي في اليمن؟

يقول "إدواردو غالينور": "العدو المهزوم لا يتهزم بشكل كامل ما لم يختم فمه".

لقد أثبتت الحروب اليمنية المتعددة مع حركة الحوثيين عدم جدوى الحل العسكري منفرداً في القضاء على حركة مسلحة تنطلق من رؤى عقائدية. فمع كون الأصل في الحروب أنها تُضعف

ولا تقوي إلا أن هذا الأصل له استثناءات ومنها إذا توفرت بعض العوامل التي يُمكن أن تجعل من الحروب عامل قوة وانتشار، ومن تلك العوامل: قيام الحركة على البُعد العقدي، ووجود الدعم الإقليمي أو الدولي لها. ومن ثم تكون الحروب بالنسبة لها أداة انتعاش وانتشار، وترسيخ لخدعة المظلومية.

إن الحروب التي خاضها الحوثيون حولتهم إلى قوة مذهبية سياسية مسلحة، تستنسخ تجربة حزب الله اللبناني. وكما قيل: "إن العدو المهزوم عسكرياً لا يهزم بشكل كامل ما لم يختم فمه"، أي يُهزم الجانب الفكري لديه. فما من حرب خاضها الحوثيون ضد النظام اليمني - وإن خرج بخسائر مادية فادحة- إلا وقد خرج منها منتصراً فكرياً ودعائياً، وكسب المزيد من الأنصار، ويعود السبب لأن النظام لم يدرك بشكل عميق أن معركته مع الحوثيين هي معركة فكر قبل كل شيء.

فالحروب التي دارت رحاها في اليمن أكسبت الحوثيين المزيد من الأنصار وبدأت شخصيات ومرجعيات زيدية علمية ودينية تتعاطف مع الحركة وتحدث عن مظلومية وحرب إبادة ضد الهاشميين والزيود. ومن أهم ما ساعد الحوثيين أنهم أداروا المعركة الإعلامية بنجاح على وتر العقيدة والفكر.

الفكرة تسبق العسكرية!

يقول "ايزايا برلين": "إن أشخاصاً قادرين على وضع أنفسهم بالكامل في خدمة نظرية وتطبيق زائف سيكونون أشخاصاً خطرين ببساطة، وكلما كانوا أكثر صدقاً كلما كانوا أكثر خطورةً أكثر جنوناً".

كشأن الأفكار في خطورتها فإنها تبدأ بسيطة وساذجة ثم تنتشر بسرعة ثم تتطور لتتحول إلى دين يعتقد الإنسان ويكون مُستعداً لأن يموت من أجله ولأن يُدمر بلداً كاملاً إذا تطلب الأمر ذلك. والشأن نفسه حدث مع الملف الحوثي، حيث بدأت القضية بنقل وتسرب أفكار

جديدة داخل البيئة اليمنية الزيدية وما لبثت أن تحولت إلى مؤسسات وأحزاب ثم إلى مذهب مُركبٍ يتبع توجهاتٍ جديدة دخل مع دولته في حروبٍ خسرت فيها اليمن خسائر فادحة في الأرواح والأموال والأمن، إلى أن استحوذ الحوثيون أخيراً على اليمن!

فكما يؤكد "محمد عزان" (الجزيرة نت ١٠/٤/٢٠٠٧م)، الأمين العام السابق لتنظيم الشباب المؤمن، فإن القضية بدأت من خلال مناقشة ثقافية فكرية بين الشباب الزيدي من خلال حلقات المساجد في الهجر، والتي استطاعت أن تجذب الشباب إليها. يقول: "بدأنا بالفعل في ترتيب هذه المدرسة واستنهضنا بعض الطلاب من خارج المحافظة، وكانت تقريباً فترة النشأة من ١٩٩٠م إلى ١٩٩٤م". ثم أعقب ذلك مرحلة ازدهار في الأفكار وتجمع الكوادر حولها بحيث تحول الأمر ليشكل حزباً سياسياً.

ومن خلال التعليم واستقطاب إيران لبعض الكوادر الزيدية إلى إيران استطاعت أن تنفذ لهذه المناشط الثقافية، فوجد في ذلك الوقت أساتذةً من المذهب الشيعي الجعفري يقومون بمهام تعليمية وسط أبناء الزيدية. وقد تمدد النشاط الحوثي لتتجاوز عدد مراكزه التعليمية أكثر من ستين مركزاً بها أكثر من خمسة عشر ألف طالباً. ثم تحول النشاط من تعليمي لزراعة الأفكار إلى نشاط تدريبي على السلاح وحفر الخنادق.

ويؤكد أستاذ العلوم السياسية بجامعة صنعاء "جلال فقيرة" في بحث كتبه بعنوان: (الدلالات السياسية لتطور الحركة الحوثية من الارتباط بالخارج إلى التمرد في الداخل)، أنّ الحركة حظيت بدعمٍ ماليٍّ كبيرٍ من إيران لدعم نشاطاتها الفكرية والتعليمية، مؤكداً أن السفارة الإيرانية بصنعاء في إحدى المرات قدمت لتنظيم الشباب المؤمن مبلغ وقدره (٦٥٠) ألف دولار لدعم المراكز الصيفية خلال عامي ٢٠٠١م-٢٠٠٢م (الجزيرة نت ٩/٨/٢٠١٠م).

ولما تضخمت قوة الحوثي بدأت تحصل مناقشات بين كوادره وبين رجال الأمن اليمني، فبدأت ما يُسمى بالحرب الأولى بين الحوثيين والسلطات اليمنية عام ٢٠٠٤م، حيث أعلنت وزارة الداخلية اليمنية أن من الأسباب التي دعته إلى الدخول في حرب مع الحوثي ما يلي: اعتداء

الحوثيين على أفراد القوات المسلحة، الترويج لأفكار مضللة ومتطرفة، إنزال العلم اليمني ورفع أعلام لجهاتٍ أجنبية (صحيفة ٢٦ سبتمبر ٢٣/٧/٢٠٠٤م).

لكن الحرب الأولى -مع تكبد الحوثيين بعض الخسائر- أبرزت صلابتهم وتمسكهم وقوة تمردهم، وحسن تنظيمهم وإعدادهم لمثل تلك الحرب، مع وجود ولاء فكري لمرجعية الحركة، منع من تفتُّتها وتمزُّقها. وما لبثت بعد ذلك أن اندلعت الحرب الثانية بين الطرفين مرة أخرى عام ٢٠٠٥م مخلِّفةً أعدادًا كبيرة من القتلى والجرحى، وبلغت الخسائر المادية (٦٠٠) مليون دولار أمريكي (التقرير الاستراتيجي اليمني ٢٠٠٧م عن المركز اليمني للدراسات الاستراتيجية، ص ١٦٧).

ويؤكد المتشيع اليمني "علي أحمد الأكوع" (صحيفة الشرق الأوسط ١٩/٣/٢٠١٠م)، في عام ٢٠٠٥م أنه قامت إيران بتقديم الدعم لحركة الحوثيين إلى جانب إشراف حزب الله على التدريب العسكري لأفراد وعناصر الحركة. ويؤكد كذلك المعلومات نفسها أستاذ العلوم السياسية بجامعة صنعاء "جلال فقيرة" أنَّ الحركة حظيت بدعمٍ كبيرٍ من إيران وأنه لولا هذا الدعم لما استطاعت حركة التمرد الحوثي أن تصمد بقوة أمام حروبٍ متتالية ضد النظام اليمني ومن معه (الجزيرة نت ٩/٨/٢٠١٠م).

وكذلك أشارت تقارير دولية إلى قيام إيران بإنشاء قاعدة لها في أرتيريا لمد الحوثيين بالسلاح عبر البحر إلى المناطق القريبة من سواحل مينائي ميدي واللحية القريبيين من صعدة، بالإضافة إلى مشاركة السفن الإيرانية التجارية بتهرب الأسلحة عبر قوارب الصيد اليمنية إلى الداخل اليمني (صحيفة الجزيرة ٢٧/١١/٢٠٠٩م). وذكرت مصادر أخرى أن إيران نجحت في تزويد الحوثيين بأسلحة متطورة قبيل نشوب الحرب السادسة ضد الحكومة اليمنية (صحيفة الشرق الأوسط ١٧/١٠/٢٠٠٩م).

وقد أكد "عبدالمملك الحوثي" (في اتصال له مع قناة العربية ٥/٥/٢٠٠٧م) أن الحركة تمتلك كميات كافية من السلاح لمواجهة الدولة، وأنَّ ما لديهم من التدريبات العسكرية العالية

والإمكانات المتطورة قادرة على قهر أي جيش يواجههم، وأنهم إلى الآن لم يحتاجون في حروبهم للحكومة إلى استخدام تلك الإمكانيات المتطورة التي يمتلكونها بعد.

لقد بدأت القضية بأفكار بسيطة ثم مراكز تعليمية - استطلاع الإيرانيون اختراقها - ثم إلى تدريب عسكري لينتهي المطاف بحروب أهلية أكلت الأخضر واليابس في اليمن، وليبقى الحوثيون بعد كل ما تعرضوا له من حروب عسكرية قوة أثبتت صلابتها وتماسكها ووحدتها الفكرية، حتى انتهى المطاف باليمن إلى أن ابتلعه الحوثيون ومن رآهم إيران.

الأوهام الدينية تصنع دولاً!

يقول المفكر الفرنسي "كوندرسيه"، تلميذ فولتير: "إن قدرة الدجال والمشعوذ على تضليل الجماهير أشد من قدرة العبقري على إنقاذها".

لقد أثبت التاريخ في اليمن وغير اليمن قدرة الأفكار - التي يُعتقد أنها ساذجة وبسيطة - على التحول إلى قوة طاغية تُقيم الدول وتسقطها في ظل غياب المختصين عن مراقبتها ومتابعتها ومعالجتها في وقتها.

ففي إيران تم صنع أفكار يسهل انتشارها عند من لديه القابلية الذاتية لاعتناقها، ومن تلك الأفكار فكرة قرب ظهور "المهدي المنتظر" وقرب ظهور المهديين له كقرب ظهور "اليمني" الذي يخرج في اليمن لمناصرة جند الإمام المهدي الخالص الذين يتواجدون في إيران!

وأحد أهم الشخصيات التي لعبت دورًا محوريًا في ذلك آية الله "علي الكوراني" الذي ألف لهذا الغرض كتابه المعروف (عصر الظهور) وبشر بقرب ظهور "اليمني"، يقول فيه: "ورد في شأن ظهوره باليمن أحاديث متعددة عن أهل البيت عليهم السلام، منها بضعة أحاديث صحيحة السند، وهي تؤكد على حتمية حدوث هذه الثورة وتصفها بأنها راية هدى تمهد لظهور المهدي عليه السلام وتنصره، وتؤكد على وجوب نصرتها مثل تأكيدها على نصرته راية المشرق الإيرانية.. وتحدد الأحاديث وقتها وأن عاصمتها صنعاء، أما قائدها المعروف في الروايات باسم اليمني

فتذكر رواية أن اسمه حسن أو حسين وأنه من ذرية زيد". وكأن هذه الرواية فصلت على قياس حسين الحوثي.

يقول المتشيع اليمني "علي أحمد الأكوغ" (صحيفة الشرق الأوسط ١٩/٣/٢٠١٠م) عن منطلقات الحركة الحوثية أنها مرتكزة على: "منطلق عقائدي بحت، وليس بصورة عشوائية، ملخصها التمهيد لظهور المهدي عبر رجل يُسمى باليماني.. وحركة الحوثي وجماعته قاموا على ما جاء في كتاب علي الكوراني (عصر الظهور). إن الحوثيين هم أبناء حزب الله الإيراني والذي ولد وترعرع بأمر من إيران ودعم منها، بعد وضع الكوراني لخطة ظهور تلك الجماعة".

الحوثيون.. جمهورية شيعية جديدة أم حزب الله جديد في اليمن؟

سبق بيان أهمية التحول الجوهري لوضع الملف الحوثي في اليمن بعد الثورة على تطور قدراته النوعية وتوسع نفوذه وتمدده حتى وصوله إلى مشارف العاصمة صنعاء، ثم أخيراً ابتلاعه لليمن! وإذا استمر الوضع كما هو عليه، أي بدعم سخي وثابت ومحوم -فكري ومادي ومعنوي- من قبل إيران وحزب الله والمراجع الشيعية في العالم لحركة الحوثيين مع تباطؤ دول الجوار الفاعلة؛ فإننا أمام تحديات كبرى ستمر باليمن وما حوله أكبر بكثير مما مرت بالمنقطة، ونحن أمام خيارات قد يراها المراقب بعيدة اليوم، لكنها قد تصبح حقيقةً وقدرًا في الغد، كقيام خلافة شيعية قويّة أو قل جمهورية إسلامية يمنية شيعية في جنوب الجزيرة العربية، تكون قاعدة استراتيجية حليفة لإيران في تمددها شمالاً في الجزيرة العربية وفي العمق الأفريقي. أو على أقل تقدير تحول حقيقي لحركة الحوثيين إلى حزب الله اللبناني باحترافيته وتنظيمه وولائه المطلق لإيران، يُعطل أي اتجاه سياسي أو اقتصادي أو ديني يتعارض مع مصالح إيران في اليمن أو في الجزيرة العربية ككل!

فالقيادة الحاليّة في الحركة الحوثية -عبد الملك الحوثي- لا تخفي إعجابها بنموذج حزب الله اللبناني، والذي قام بتدريب كوادر حركة الحوثيين فعليًا في اليمن وفي جنوب لبنان، بل إنَّ

آية الله "علي الكوراني" يؤكد أن إيران كما صنعت ودعمت حزب الله اللبناني هي تدعم كذلك الحركة الحوثية في اليمن. (صحيفة الشرق الأوسط ١٩/٣/٢٠١٠م).

هل جرت إيران السعودية إلى المستنقع الحوثي!

عبر سنوات طويلة والحركة الحوثية تتلقى الدعم والتدريب من قبل إيران وأذرعها في المنطقة، ودخلت في صراعات صغيرة ثم تطورت إلى صراعات كبرى من النظام اليمني لاختبار قوتها ومدى فاعليتها لتخرج أمام الجميع بإثبات وجودها كقوة فكرية منظمة ومسلحة في شمال اليمن.

لم تكتف الحركة الحوثية بتحرشاتها بالقوات المسلحة اليمنية بل مدت يدها إلى داخل السعودية، حيث أعلنت الرياض رسمياً عن رصدها لمسلحين قاموا بالتسلل إلى "جبل الدخان" داخل أراضيها، وأطلقوا النار على دوريات حرس الحدود فقتلوا وأصابوا (صحيفة الوطن ٥/١١/٢٠٠٩م). ولم تنكر الحركة الحوثية ذلك بل صرحوا بأنهم هاجموا موقعاً حدودياً وقتلوا جندياً سعودياً وأصابوا ١١ آخرين (العربية نت ٤/١١/٢٠٠٩م).

وعلى إثر ذلك دخلت السعودية في حرب مع الحوثيين، في ذلك الوقت كان الحوثيون يقاتلون على جبهتين: السعودية واليمنية!! حتى أعلنت قيادة الحركة توقف إطلاق النار مع السعودية في ٢٥/١/٢٠١٠م وأنهم سينسحبون من كامل الأراضي السعودية (العربية نت ٢٥/١/٢٠١٠م)!

وقد تساءل كثير من الباحثين عن السبب الذي جعل الحركة الحوثية - في الوقت الذي كانت تخوض فيه حرباً ضروساً مع الدولة اليمنية - تدخل في حرب مع دولة قوية وهي السعودية؟

فقد ذهب البعض إلى أن الحركة - ومن ورائها إيران - اقدمت على ذلك لتوجيه رسالة قوية وواضحة للسعودية لإظهار أنفسهم قوة مسلحة ومنظمة متماسكة يمكن أن تهدد السعودية في

أي لحظة، لتكون عبارة عن بطاقة ضغط تلوح بها إيران متى ما شاءت مثلها مثل حزب الله في جنوب لبنان.

ويرى بعض الباحثين والمحللين مثل الباحث اليمني "محمد الغابري" (الجزيرة نت ٢٠١٣/١/١٣م) أنه لا يبعد وجود أصابع طهران في تحويل الحرب لداخل السعودية. فيقول: "نقل الحوثيين للحرب إلى داخل الأراضي السعودية يشير إلى وجود قرار إيراني بتوريط السعودية فيها، واستنزافها في حرب عصابات طويلة، وربما ذلك يأتي لممارسة ضغط على السعودية وحملها على التعامل مع الحوثيين باعتبارهم قوة حقيقية في الداخل اليمني". ويقول: "إيران تنظر لصعدة كما تنظر إلى البصرة من حيث موقعها الإستراتيجي، خاصة أن صعدة قريبة من البحر الأحمر، وهي تحلم أن يكون لها وجود جنوب البحر الأحمر، ولذلك تستخدم طهران الحوثيين لتحقيق أهدافها الإستراتيجية".

توجيه عدااء الزيدية إلى السلفية!

إحدى أهم الاستراتيجيات الإيرانية في العالم الإسلامي تتمثل في تركيز العدااء وتجميعه نحو السلفية (أو الوهابية). ففي معظم العالم الإسلامي تجهد إيران لتصوير العدااء بينها وبين الوهابية فقط وليس مع أهل السنة محاولة استقطاب الصوفية والأشعرية ضمن معسكرها ضد السلفية، مع أنَّ الواقع خلاف ذلك يشهد لذلك ما فعله إيران وأذرعها بسنة إيران والعراق وسوريا.

هذه الاستراتيجية طبقتها إيران في اليمن، وحاولت تجنيد زيدية وصوفية اليمن ضد اسم "الوهابية" لصرف النظر عن التغلغل الإيراني والأطماع الإيرانية في اليمن!

ففي عام ٢٠٠٧م قدمت الحركة الحوثية وعلماء زيود مطالب وشروط للدولة اليمنية لأجل وقف الحرب (صحيفة البلاغ "الحوثية"، عدد ٧١٥: ٦/٢/٢٠٠٧م)، والعجيب حقاً أن كل تلك المطالب والشروط تصب في الناحية الفكرية. ومن تلك الشروط والمطالب:

- سحب جميع القادة المنتمين للتيار السلفي.

- سحب جميع الخطباء السلفيين وتسلم مساجدهم.
- سحب مركز دَمَاج السلفي من المحافظة باعتبارها زيدية (وهو ما تحقق فعلاً في عام ٢٠١٤م!!).
- منع نشر جميع الكتب السلفية في المناطق الزيدية.

وإيران تعلم جيداً أنّ مشروعها التوسعي في اليمن لا يُمكن أن ينجح في ظل وجود سلفي، وأن أهم قوة يُمكن أن تُحبط مخططاتها التوسعية هو الفكر السلفي على وجه التحديد وما يُمثله من تماسك وقوة في مواجهة الفكر الإيراني. فكان من الطبيعي أن يُدفع الحوثيون -خصوصاً بعد الثورة- إلى مهاجمة مواقع السلفيين في صعدة وغيرها وطردهم من المناطق التي يصل لها النفوذ الحوثي وإنهاء وجودهم تماماً لتخلو الساحة بشكل تام للتوسع والتمدد الإيراني.

وهذه الإزاحة الإيرانية-الحوثية لمواقع السلفيين قد تنبأ بها بعض المراقبين السياسيين المعتمنين بالحالة اليمنية (صحيفة أخبار اليوم ٢٣/٨/٢٠١٢م)، حيث أكدوا أنه يجري الإعداد لذلك من قبل إيران، وهو ما تم فعلاً خلال الفترة القريبة الماضية!

هل أصبحت معظم خيوط اللعبة في اليمن بيد إيران وحدها؟

من يراقب الحالة في اليمن يجد أنه في كل يوم يمضي تزداد إيران تغولاً وتغلغلاً في العمق اليمني محققة المكاسب تلو المكاسب، وأنها تُمسك حتى هذه اللحظة بخيوط مهمة للعب فيها في الساحة اليمنية. ومن تلك الخيوط:

أولاً: الحوثيون: وقد سبق الحديث عنهم وكيف أنهم أصبحوا القوة الأولى في اليمن الآن.

ثانياً: القاعدة: فمع التناقض الفكري بين القاعدة وإيران إلا أنه لم يعد يخفى مدى اختراق إيران للقاعدة وتوجيهها حسب أهدافها في العراق وسوريا واليمن، حيث يقبع أهم قادة القاعدة في إيران ويتم توجيه كوادهم حسب المصالح الإيرانية التي تديرها الاستخبارات الإيرانية، وقد

كشفت السجلات الإعلامية بين داعش والقاعدة عن موادة ومسالمة الأخيرة لإيران كاستراتيجية ثابتة لها!

ثالثاً: الحراك الجنوبي: تسعى إيران إلى إضعاف اليمن، لأنها تعلم أنها لا يُمكنها أن تعمل بشكل جيد إلا من خلال وضعيّة الفوضى والاضطراب والضعف. فرئيس جهاز الأمن القومي اليمني "علي حسن الأحمدي" (الجزيرة نت ٢٠١٣/١/١٣ م) صرح في العلقن في سابقة هي الأولى من نوعها، في مؤتمر صحفي أكد خلاله أن "إيران تقدم دعماً مادياً للانفصاليين بجنوب اليمن"، واتهم طهران بالسعي لإفشال المبادرة الخليجية". واتهم السفير الأمريكي بصنعاء "جيرالد فايرستين" (العربية نت ٢٠١٢/١٢/١٨ م) إيران بتقديم الدعم للحوثيين ولفصائل في الحراك الجنوبي، إضافة إلى دعمها لبعض نشاطات القاعدة.

ولذلك تجد أنّ بعض القوى الجنوبية المعارضة في الخارج بزعامة "علي سالم البيض" لا تجد غضاضة في العلقن أن تُثني على إيران وتدعوها لدعم القضية الجنوبية. وفي تصريح للبيض يبر موقفه، قال فيه: "إيران دولة موجودة في المنطقة وقادرة ولها دور كبير، وهي جارة للعرب وسند لهم، وقد ساعدت لبنان وفلسطين وحزب الله، وما من دولة عربية قامت بما تقوم به إيران". (صحيفة الأخبار اللبنانية ٢٩/٩/٢٠٠٩ م). وقال: "إيران مجرد واحدة من دول المنطقة، وليست الوحيدة الموجودة في اليمن. هناك علاقات وتفاعل معهم جميعاً" (رويترز ٢٠١٢/٥/١٧ م).

وذكر القيادي بالحراك الجنوبي العميد "عبد الله الناخي" أنّ أعمال شغب شهدتها عدن لا سيما التفجيرات وقطع الطرق يقف وراءها عناصر في الحراك الجنوبي تدرت في إيران. ويقول: "التدريبات العسكرية لمجاميع من عناصر الحراك التابعة للبيض تجري في إيران وبإشراف الحرس الثوري، وفي لبنان يتولى تدريبهم حزب الله، ومن ثم يعودون إلى عدن لخلق الاضطرابات والفوضى" (صحيفة أخبار اليوم ٢٠١٢/٧/٨ م).

وقد أشارت الغارديان البريطانية في تاريخ (٢٠١٢/٥/١١) إلى أن الكثير من شباب الحراك الجنوبي يغادرون اليمن بهدوء للتدرب في إيران وضمن اعداد صغيرة. ونقلت عن ناشط يمني

قوله: "لا اعتقد أن الإيرانيين يدرّبون جيشاً هناك لأننا لسنا بحاجة للتدريب العسكري، وأظن أنهم يجنّدون هؤلاء الشبان ليكونوا عملاء لوكالاتهم الاستخباراتية في اليمن".

وذكر القيادي بالحراك الجنوبي "محمد علي أحمد" أنّ أغلب قيادات الحراك ذهبوا إلى إيران لاستجداؤها من أجل تقديم الدعم. يقول: "إيران طلبت من قيادات الحراك تجنيد وتعليم وتدريب ٦٥٠٠ شاب من الجنوب!" (العربية نت ٢٠١٢/١٢/١٨م).

وذكر مصدر حكومي لصحيفة السياسية الكويتية بتاريخ (٢٠١٢/١٢/٢م) أنّ إيران أنفقت نحو مليار دولار لدعم مخططها لفصل الجنوب، وأنها استقطبت شباباً من عدن وغيرها وأرسلتهم للتعليم والتدريب في إيران ولبنان.

رابعاً: المخدرات: وهي من أهم وسائل إيران وحزب الله لاختراق المجتمعات وتدمير شبابها وفي الوقت نفسه توفير الدعم المادي لعملياتها العسكرية وشراء السلاح وكذلك عملياتها المعنوية والفكرية، وقد جعلت إيران من اليمن الجسر الذي تعبر عليه المخدرات إلى السعودية، بحيث أصبح هذا الأمر أشهر من أن يُذكر. ففي عام ٢٠٠٨م -مثلاً- ضبطت الأجهزة اليمنية في ميناء نشطون بالمهرة ١١ بحاراً إيرانيّاً بحوزتهم كمية كبيرة من المخدرات (مأرب برس ١٤/٦/٢٠٠٨م). وذكر وزير الداخلية اليمني الأسبق "رشاد العليمي" أن خفر السواحل ما بين ٢٠٠٦-٢٠٠٧م استطاع ضبط أطناناً من المخدرات كانت في طريقها للسعودية (صحيفة الرياض ٢٥/٥/٢٠٠٧م).

ما الحل؟

لا شك أن إيران ولسنوات طويلة كانت تعمل -بجد وصبر وبرؤية مستقبلية- داخل اليمن، وقد حققت مكاسب حيوية خطيرة، فما الحلُّ تجاه هذه المكتسبات الإيرانية وخصوصاً الملف الحوثي؟

قد يقول قائل: لماذا لا نعترف بالحوثيين كقوة محليةّ ونتعامل معها على هذا الأساس؟

في الحقيقة، من السهل قول ذلك، ولم لا، فإيران تصنع وتخلق القوى الموالية -عقديًا وسياسيًا- لها والأنصار والعملاء في صبر وطول نفس ودعم غير محدود لتقطف ثمارها في الوقت الذي تحتاجهم، لنأتي في النهاية ونقوم بالدور السهل واليسير وهو الاعتراف بعجزنا والإقرار بمنجزات إيران على أرض الواقع، وعليه فنحن لا نحتاج إلى أي شيء سوى الرضوخ للنجاحات الإيرانية كجزء من تحقيقها، والاستسلام للإرادة الإيرانية وأذرعها!

وقد سبق بيان أنّ من دوافع إيران لتوجيه الحوثيين لخوض غمار بعض الحروب وخصوصًا حربها مع السعودية إظهار الحوثيين كقوة في المنطقة ترغم غيرها على الاعتراف بها والتعامل معها - ومن ورائها إيران- على أساس فرض الواقع المكتسب، فالمراقبون والمحللون يرون اعترافنا بالحوثيين كقوة والتعامل معها على هذا الأساس هو تحقيق لهدف تسعى إيران لانجازه!

وقد يقول قائل: ماذا عن إمكانية احتواء السعودية للحركة الحوثية سياسيًا؟

في الحقيقة قد يبدو هذا التوجه واقعيًا إذا أمكن بالفعل احتواء "حسن نصر الله" وحزب الله في لبنان، أو أمكن احتواء رئيس الوزراء السابق "نوري المالكي" في العراق، وتحييدهم جميعاً عن التحالف والانخراط في المشروع الإيراني في المنطقة!

إن الذي يجمع بين الثلاثة (الحوثيين ومالكي العراق وحسن لبنان) هو ارتباطهم العضوي بإيران والتي ظلت لعقود تبنيهم وتصنعهم من لا شيء على أعينها صنعًا فكريًا-عقائديًا، واقتصاديًا-سياسيًا- عسكريًا، حتى أصبحوا قوى محلية وإقليمية تقطف ثمارها وتحارب بهم الأعداء أينما كانوا!

فالقول باحتواء هؤلاء -الذين ولاؤهم لإيران دينيًا وعسكريًا وماليًا- هي في ظني ضربٌ من الأوهام. ويكفي أن نتذكر فقط أن هذا النمط من التفكير، هو ما ورّط الرئيس اليمني علي عبدالله صالح مع الحوثيين حين توهم إمكانية التحالف معهم وتوجيههم ضد خصومه متى ما يُريد، فانتهى به الحال إلى خوض حروبٍ شرسةٍ معهم، وقد كان أصل الإشكال هناك ابتداءً

من محاولة علي صالح عقد تحالف مع الحركة الحوثية أول نشأتها، لمواجهة قوى المعارضة السياسية السنوية المتنامية في اليمن. فقام بضم حسين الحوثي لحزبه، ثم قدّم له الدعم السياسي للتغلغل في صعدة، وساعده على إبعاد معارضيه منها، حتى تفاجأ بنشاطه المسلح فيها، فاضطر لمواجهة عسكرياً، لكن بعد فوات الأوان. ولا يزال علي عبدالله صالح يُكرر الخطأ نفسه مع الحوثيين الآن حين مكنهم من اليمن، ويظن أنهم سوف يسلمون اليمن له مرة أخرى أو لابنه، أو أنه يُمكنه ببساطة أن يقلب عليهم ظهر المجن بتحالفات جديدة معاكسة لهم!

هل يُمكن أن يكون هذا هو الحل؟

اعتقد أن مواجهة المشروع الإيراني، في اليمن أو غيره، يجب أن يرتكز على ركيزتين أساسيتين هما لب العمل في المشروع الإيراني التوسعي، ومن خلالهما تنبثق وتنطلق الحلول التفصيلية:

أولاً: في مثل هذه القضايا لن ينجح إلا من يملك استراتيجية واضحة ومكتملةً يبنى عليها طريقة معالجة الأحداث، ورسم الخطط، وبناء التحالفات. والذي يريد التعامل مع هذا النوع من القضايا عبر نظرة تجزئية، تقصر النظر على حدثٍ معزول عن سياقه، فسوف يهدر جهده وماله في هدم نفسه دون أن يشعر، ويجعل أمواله الضخمة عرضةً للسرقة من كل من هب ودب. فكما أن المواجهة تمثل استراتيجيةً ومشروع دولةً بالنسبة لإيران، لا بد أن يكون المشروع المقابل مبنياً على رؤية استراتيجية محددة الأهداف.

ومشروع المواجهة الفكرية للتمدد الإيراني له من التعقيدات ما يجعل من الخطأ الفادح ترك معالجته لاجتهاداتٍ فردية، أو مؤسساتٍ صغيرة محدودة الإمكانيات.

علينا أن نملك استراتيجية طويلة المدى تُسخر لها الإمكانيات اللازمة بسخاء. فمشروع دولة إقليمية كبرى مثل إيران لن ننجح بمواجهته بسياسة "ردة الفعل" المؤقت، بل بمشروع شامل وحكيم وطويل النفس، توظيف القدرات لخدمته.

ثانياً: أن يكون مفتاح هذا المشروع بالدرجة الأولى هو البعد الفكري (القوة الناعمة) ثم تتدرج بعد ذلك بقية الأمور حسب أهميتها والحاجة إليها. فالفكر لا يُستبدل إلا بالفكر وليس بالمال أو التسكينات المؤقتة. والفكر لا تواجهه الطائرات ولا الرصاص بل عبر تفكيكه وتفتيته، أو على الأقل تشتيته من خلال دعم الأفكار المنافسة القادرة على الثبات والتماسك.

هذه الرؤية كانت واضحة لدى الجميع في قضية (محاربة الإرهاب)، غير أنها كثيراً ما تغيب في مثل قضية الحوثيين. والسبب في غياب هذه الرؤية رغم وضوحها وبداهتها يرجع إلى الخضوع لضغط واحدة من أهم الاستراتيجيات والأدوات التي يستخدمها الخصم الإيراني، حيث تظل آتة الإعلامية تحدث الآخرين عن طائفتهم، حتى ألفت في وعيهم دون أن يشعروا أن عليهم إثبات براءتهم من الطائفية قليلها وكثيرها، في حين تظل هي ممسكةً بهذه الورقة لتجعلها أساس مشروعها التوسعي.

بعض التوصيات:

من خلال المحورين الأساسيين يُمكن أن نطلق في طرح بعض التوصيات الممكنة، كما يلي:

أولاً: تقديم الفكر البديل: سبق في مقدمة الورقة التنبيه إلى أهمية الفكر وأنه المفتاح الأساس وحجر الزاوية في هذا المشروع. والفكر الوحيد القادر على تحجيم المشروع الإيراني هو الفكر السني المعتدل. والناس بفطرتهم وبطبعهم متدينين ولا بد أن يجدوا الدين أو المذهب الذي يؤمنون به ويقاثلون من أجله، فإما أن يُقدم لهم الفكر الصحيح المعتدل المبرهن بأدلته ووسائله العصرية المتنوعة أو أن يقوم غيرنا بتقديم ما لديه. إن امتناعنا عن تقديم الفكر السليم المعتدل لن يجعل الناس يقفون بلا تدين أو فكر، كما أن امتناعنا -أيضاً- لن يوقف غيرنا عن تقديم البديل المناسب لخدمة أهدافه.

المشروع الإيراني يستند في عمله على منظومة أفكارٍ موروثة، مع تصورات تاريخية مؤثرة في الوجدان يسعى لاستثمارها بكل ما يملك من آلة إعلامية وأدواتٍ ماديةٍ وسياسيةٍ. ونحن نملك تصورات أكثر تماسكاً، وأكثر قابليةً للانتشار والتأثير. لكن يوجد قصورٌ كبيرٌ في تقديم الدعم الكافي لمنافسة الترويج الإيراني لمشروعه.

ثانياً: تعزيز الحلفاء وتوسيع دائرة الأصدقاء: ومن اللاعبين المهمين في اليمن القبائل، وأهم ركيزة يُمكن أن يُرسخ بها الصداقة والتحالف هو الفكر بالدرجة الأولى. وإلى جوار تبني سياسة واضحة وثابتة في كسب القبائل كأصدقاء من خلال الدعم الفكري يجب تقديم الدعم المادي والدعم المعنوي والوجاهة، وأن لا يُكتفى بكسب شيوخ القبائل فقط فبزوالهم يزول الولاء أو بتغير ولاء الشيخ يتغير ولاء القبيلة، بل وفق سياسة كسب شيوخ القبائل وأيضاً، أفرادها الذين سوف يتوارثون الصداقة والولاء. ولا بد من دعم كل جهدٍ دينيٍّ يعمل على ترسيخ الفكر السني المعتدل في الوسط القبلي. ولن يكون من المناسب نبذ هذه الفكرة خوفاً من نشأة فكرٍ سنيٍّ متطرفٍ. فالشعب اليمني كسائر شعوب المنطقة شعبٌ ذو عاطفة دينية، وإذا لم نساعدنه نحن على اختيار وسطيته، فسوف يساعده غيرنا ممن يملك رؤية واستراتيجية واضحة الهدف. نعم، قد نفشل فشلاً جزئياً فتنشأ على الحاشية أفكارٌ لا نرتضيها خارجة عن المسار الذي نسعى لبنائه. لكن حتى هذه الإشكالية، دواؤها في دعم الفكر المعتدل بكل مثابرةٍ. نحن أمام خياراتٍ ليس فيها خيارٌ واحدٌ خالٍ من الإشكالات، ومع هذا لا بد من الاختيار. وأسوأ اختيارٍ نقع عليه، سيكون في الاستمرار في الإعراض عن الجانب الفكري الذي يستثمره خصمنا بكل ما أوتي من قوةٍ، وهو يحقق كل يومٍ نجاحاتٍ يبصرها الجميع.

ثالثاً: تأسيس مراكز بحثية مختصة بالحالة اليمنية: يجب الاعتراف أن هناك ضعفاً وافتقاراً عميقاً لدينا في وجود المراكز المختصة بمتابعة الجوانب العقائدية و الفكرية في المنطقة تضم الخبراء في الجانبين الأكاديمي والميداني. فأقل الإيمان التعميد الفوري بإنشاء مركز متخصص فقط في الحالة اليمنية، لتقدم التصورات العلمية الميدانية عن اليمن، لتكون المقدمة للتحليل ومن ثم تقديم الحلول المناسبة وفق الرؤية الصائبة التي تُلامس الواقع. وغياب مثل هذه المراكز، هو ما قد جعلنا نفكر في الحل بعد فوات أوانه الأنسب. فالمراكز البحثية هي أدوات الرصد الصادق،

وهي جرس الإنذار المبكر الذي ينبهنا إلى المخاطر التي تزحف إلينا. ورغم تأخرنا في تبني مثل هذه المشاريع، إلا أنه -لا زال- من الممكن تدارك ما فات. ولا بد من التأكيد على ضرورة البعد عن إسناد مثل هذه المشاريع لغير من يحمل همّ بلده وفكرته بصدق وإخلاص .

ومن أهم أدوار المراكز البحثية المرجوة، فهم الواقع بصدق وشفافية، ومعرفة أن هناك حالات انقسام داخل الصف الحوثي وداخل حلفاء المشروع الإيراني في اليمن، فهل نعرفها حقًا وهل درسناها وتتبعناها بعمق؟ وكيف يُمكن أن يستفيد منها اليمن لصالح الاعتدال والوسطية وكبح جماح التطرف والإرهاب الإيراني؟ كذلك هناك أطراف منافسة في الداخل اليمني، فهل يُوجد استراتيجية لتقديم الدعم لها من أجل إحداث توازن في القوى يخل بالمشروع الإيراني الذي يرمي بثقله الآن في اليمن. كذلك يخشى من تطور الامتدادات الفكرية للحوثيين على طول الخط الحدودي مع اليمن. فغياب الاستراتيجية ومعرفة التماس على أرض الواقع لدينا سمح لأصواتٍ في داخل بعض الدول الخليجية، أن تعلن أو تلمح إلى تأييد الحركة الحوثية من خلال الانخراط في الحديث عن مظلوميتهم وعن طائفيتنا!

رابعًا: الجانب الإعلامي: هناك إغفال كبير للجوانب الإعلامية بكافة وسائلها (القنوات، الإذاعات، الإنترنت، الصحف) في مقابل استغلال كبير من الجانب الإيراني لهذا الجانب. لا بد من العمل على تأسيس منابر تتبنى بذكاءٍ ومهنيةٍ وسياسةٍ هادئةٍ ناعمةٍ تنشر رسالة توعوية ودعوية بالحكمة والأساليب العصرية لكشف خداع وتضليلات الدعاية الإيرانية. يوجد الآن في عالم الفضائيات ما يزيد على الخمسين قناةٍ تخدم المشروع الإيراني، وهذا الرقم في تمددٍ وزيادةٍ، وكثيرٌ من هذه القنوات يتميز بالاحتراف في تمرير رسالته. يقابلها فقط ثلاث قنواتٍ سنويةٍ ضعيفة الموارد، نشأت بجهود فردية، وتفتقر للمهنية الإعلامية المحترفة، وللذكاء السياسي في تمرير الخطاب الناعم الذي لا يثير المناعة والرفض. ومع الضعف المهني لدى هذه القنوات، فإنها عرضة للوقوع في الخطأ الذي قد يكلفها غضبة الدول السنوية التي لا تملك رؤيةً واضحةً، فهي بالتالي عرضة للإغلاق أو التضييق والتحجيم.

يضاف لما تقدم أنه من المتعين ألا يقتصر الأمر على تأسيس للقنوات المتخصصة، بل حتى القنوات العامة والإخبارية، حتى غير الحكومية، ولا بد من العمل على إدخال رؤية واضحة لديها فيما يتعلق بالفكر الذي تركز عليها الاستراتيجية الإيرانية.

لا يكفي أن تهاجم إخبارياتنا مواقف إيران السياسية، في حين تغفل عن القاعدة الفكرية التي يقوم عليها المشروع الإيراني في تغذية الكراهية ونشر ثقافة الإرهاب الطائفي. ومن المؤسف هنا أن بعض القنوات المحسوبة على الدول السنيّة، وتحت ضغط الحرص على البراءة من الطائفية، تتبنى خطاباً معاكساً لمصالح تلك الدول، خادماً للمشروع الإيراني، حتى إن بعضها يتعمد مهاجمة القنوات السنية التي تكافح المشروع الإيراني وتقف في وجهه، ومهاجمة وتشويه أي ملامح سنية وفي الوقت نفسه يسكت عن جرائم وإرهاب المليشيات الشيعية التي تفوق في إرهابها ما تقوم به بعض الجماعات السنية!

د. عايض بن سعد الدوسري